﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾

[الشعراء: 34 - 37]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من بيان المعجزاتِ إلى بيان التَّصدي لها

لمّا ذكرَ النَّظمُ الكريم في الآيتين السابقتين إجراءَ الله تعالى على يدَي موسى عليه السلام معجزتَي العصا واليد؛ أتْبَعَهُ هنا ببيان أنَّ فرعونَ لمّا "هاله ذلك، ولم يكن له فيه مدفع؛ فزع إلى رَمْيِه عليه السلام بالسِّحر، وطمع - لِغلبة علم السِّحر في ذلك الزَّمان - أن يكونَ ثَمَّ مَن يُقاومه، أو أنَّه كان عَلِم صحَّة المعجزة، وعَمَّى تلك الحُجَّة على قومه برمْيِه بالسحر"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِلْمَلَإِ﴾: أصلُ (ملأ) يدُلُّ على الكمالِ في الشَّيءِ[2]، ومنه المَلَأ: جماعة يجتمعون على رأي، فيملؤون العيون رواء ومنظرًا، والنُّفوسَ بهاءً وجَلالًا[3]، وهم أيضًا: الرُّؤساء، سُمّوا بذلك لأنهم مِلاءٌ بما يُحتاج إليه، وهم كذلك الَّذين يُرجَع إلى قولهم، والجَمعُ أملاء، والواحِدُ مَليءٌ[4]، وقيل هم الأَغْنياءُ المُتَموِّلونَ ذَوو الأَموال في إعطاء الدَّين وتسليمه لطالِبه ومُتقاضيه بلا مشقَّةٍ، ولو لم يكونوا في الحقيقة أغنياءَ[5]، وأمّا المُرادُ بهم في الآية: فالجماعةُ من عِلْيَةِ القوم[6].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 154.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملأ).
(3) الراغب، المفردات: (ملأ).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (ملأ).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (ملأ).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 35.

2) ﴿أَرۡجِهۡ﴾: أصلُ (رجأ) يدُلُّ على التَّأخير والتَّأجيل[1]، يُقالُ: أرجأْتُ الأمر وأرجيته إذا أخَّرتَه وأجَّلتَه، يُهمَز ولا يُهمَز، وإذا وصَفْتَ به قلتَ: رَجُلٌ مُرْجٍ وقومٌ مُرْجية، وإذا نسبتَ إليه قلت: رَجُلٌ مُرْجيٌّ، بالتَّشْديدِ[2]، ويأتي بمعنى الإمهال، وإعطاء الرَّجاء، وهو: الأمل[3]. والإرجاءُ في الآية معناه: الإمهال والتَّأخير إلى وقت مُستقبلٍ.

3) ﴿ٱلۡمَدَآئِنِ﴾: أصلُ (مدن) مُشتَقٌّ مِنْ مَدَنَ بالمكان إذا أقام[4]، ومنه المدينة: البلدةُ الَّتي كثُر سكانها[5]، وهي فَعيلة، وتُجمعُ على مدائن، بالهمز، ومُدْنٍ ومُدُن بالتَّخفيف والتَّثقيلِ[6]، وذكَر بعض أهل اللُّغَة أَنَّ فِعل (المَدْن) مُمات وأَنَّه من قَوْلهم: مَدَنَ بالمكانِ، إذا أَقامَ به، وبه سُمّيت المدينة في لُغَة هؤلاءِ، وأنكر ذلك قوم فقالوا: مدينة مَفْعِلَة من قَوْلهم: دينَتْ، أَي مُلِكَتْ، والأَمَة يُقالُ لها مَدينة لأَنَّها مملوكَة[7]. والمراد بالمدائن هنا: جَمعُ مدينةٍ، أي البلدُ العظيمُ، ومدائنُ القُطْرِ المِصريِّ يومئذٍ كثيرةٌ[8].

4) ﴿حَٰشِرِينَ﴾: أصلُ (حشر) يدلُّ على الجَمْعِ والسَّوقِ والبعث والانبعاثِ، وأهلُ اللُّغة يقولون: الحَشْرُ الجَمع مع سَوْقٍ، وكلُّ جَمعٍ حَشْرٌ[9]، والحَشْرُ: جَمع النّاس يومَ القيامة، والمَحْشَرُ: المَجمعُ الَّذي يُحشر إليه القَوم، وكذلك إذا حُشِروا إلى بلدٍ أو مُعسكرٍ أو نحوِه[10]، ومنه سُمّيَت الحَشراتُ بذلك؛ لاجتماعها وكَثرتها، ويأتي الحَشْرُ بمعنى السَّوْقِ، فيُقال: حَشَرَ إبله، أي: ساقها[11]، والمقصودُ بالحَشْرِ في الآية: اجتماع النّاسِ مِن مواضِعَ مُتفرِّقةٍ إلى مكانٍ واحِدٍ[12]، والمُرادُ: رجالًا يجمعون السَّحرة إليك.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجى).
(2) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (رجا).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (رجا).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (مدن).
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مدن).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (مدن).
(7) ابن دريد، جمهرة اللغة: (مدن).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 129.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حشر).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حشر).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حشر).
(12) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 217.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّمويهُ على العامَّة باتِّهام المصلحين مسلك المفسدين

لمّا رأى فرعونُ معجزتَي موسى ﷺ؛ علِم أنَّ الأمر خطيرٌ عليه وعلى مُلكه، فسارع إلى تهمتهِ ﷺ بالسِّحْر؛ صرْفًا لِجُلسائهِ عمّا بَدا لهم مِن قوَّة المعجزتين، فذلك زمانُ السِّحر والسحرة، ومن اليسير إقناعُهم بتلك التُّهمة الجاهزة.

ولم يكتفِ الملعون بِتُهمة موسى ﷺ بالسِّحر، بل بنى عليها تَهييجَهم بِتُهمةٍ أخطر، بحيث يَضمن صرفَهم عن موسى ﷺ صرفًا تامًّا، بل ويضمن معاداتهم إيّاه ومحاربتهم له بكلِّ ما يستطيعون، فاتَّهمه بالعزم على إزالة حكمهم عن مصر، وبإخراجهم مِن وطنهم إخراجًا.

فكان أن أجمعوا على ألّا يقتله فرعونُ، بل يُمهله ريثما يتهيَّأ لمُناظرته بِسَحَرَة مثلِه، وأن يَبُثَّ شُرَطَته في الأمصار لِجمع حُذّاق السَّحرة والمهَرَة منهم في صنْعةِ السِّحر؛ لِمُلاقاته ﷺ.

وترشدُ الآياتُ الكريمةُ إلى أنَّ صنيع فرعونَ هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك؛ ليجتمعَ الناسُ في صعيد واحد، وتظهرَ آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النَّهار جهرة، وإلى مشروعية استشارة الأمير رجاله في الأمور ذات البال، وإلى ثبوت السِّحر، وأنَّه فنٌّ من فنون المعرفة، وإن كان تعلُّمُهُ وتعليمه محرَّمين[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصل الجملة عمّا سبقها:

فُصِلت جملة ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ﴾ عمّا قبلَها للاستئناف البيانيِّ، حيث يتساءل المتلقّي: وماذا كانتْ ردَّة فعل فرعون إزاء هاتين المعجزتين العظيمتين؟ فيأتي الجواب: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 322، والجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 647.

نوعُ (اللام) ودلالتها:

عنايةُ الفراعين بخواصِّهم المقربين من أهل الولاء

أفادت (اللام) في قوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ﴾ الاختصاص؛ إذ (الملأ) أهل مشورته، وإن يكن منه من تقدير لأحدٍ من شعبهِ، فلهم بخاصَّة، أمّا عوامُّ الشعب؛ فلا وزنَ لهم عند الفراعين؛ لذلك اختصَّ فرعونُ ملأَهُ بأن يأمروه، أو يشيروا عليه في شأن هذا الخطر المحدق به.

معنى تعريف المَلَأِ:

ملأُ فرعونَ هم خواصِّه الموثوق بهم

(اللام) في قوله تعالى: ﴿لِلْمَلَإِ﴾ لامُ العهدِ، التي تخصِّص الملأ، وتعيِّنهم، وإلّا ففرعون لن يخاطبَ أيَّ ملَإٍ في أمرٍ خطير مثل هذا، ولا بدَّ من أن يكون الملأُ هو الموثوق به، الذي يسانده بالباطل من جهةٍ، ويزيِّنُ له الأمور، ويحظى بالعطايا والمزايا من الجهة الأخرى.

نكتةُ استعمالِ لفظ الملأِ:

الملأُ أخصُّ من القومِ وألصق بالحكم

الملأُ هم الرؤساء والأشراف، وملَأٌ "قوم فرعون هم سادتهم، وهم أهلُ مجلس فرعون ومشورته"[1]، وآثر النَّظمُ الكريم في جملة ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ وصْفَ حاشيةِ فرعونَ وجلسائه وخلصائه بالملأِ دون (القوم)؛ لأنَّهم الذين يعاونونه، ويُمالِئونه، فهُم أهل مِلاء بما يُحتاج إليه، وهم الكبار من قومه الذين يُخلصون له، ويتضامن لهم، ويستريح إليهم، أمّا القومُ؛ فوصْفٌ يُطلق على عامَّة الشعب، فالقومُ أعمُّ من الملأ، والملأُ بالنسبة للرئيس خواصُّه، وهم الذين يثبِّتون أركانَ حكمِهِ، ويُحامون عنه في المدلهمّات، وهذا المفهوم ينطبقُ على أغلب مواضع الملأ والقوم في الذِّكر الحكيم.

لطيفةُ تَكرارِ لفظ ﴿حَوْلَهُۥٓ﴾:

الفرعونُ بدون حاشيةٍ خوّارٌ، لا بقاء له ولا استقرار

كرَّر النظم الكريم كلمةَ ﴿حَوْلَهُۥٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ بعد ذكرها في قوله تعالى: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾؛ وهو بذلك يَلْفتُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 41.

إلى تحصُّنه بهم، واتِّخاذهم سياجًا مِن حوله، وهو يتوسَّطُهم، إشارة إلى ضعفه بدونهم، وأنَّ الذين يُمالِئون الطاغية شركاؤُهُ في الجرم، وإلّا فكان يكفي أن يُقال: (فقال للملأ: إنَّ هذا لساحر) دون ذكر ﴿حَوْلَهُۥٓ﴾، فلمّا ذَكَرَهُ؛ دلَّ على قصدهِ لَفْتَ المتلقّي إلى إشاراته ودلالاته.

دلالةُ التَّوكيدِ في السياق:

إحساسُ الطُّغاةِ بِكَذِبِهم يَنضحُ على ألسنتهم توكيدًا

آثرَ النَّظمُ الكريم بيانَ حالِ فرعونَ بذكر ما يدلُّ على زعزعته بأسلوب التوكيد، برغم عدم وجود منكِر مِن ملئه، فيقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، بعد أن أكَّدَ لهم أيضًا في قوله تعالى على لسان المأفون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، وهذه طبائعُ الكاذبين، يجتهدون في ترويج أكاذيبهم باليمين والتَّوكيد، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾ [القلم: 10].

نكتةُ التَّعبيرِ بالإشارة:

التَّعبيرُ بإشارة القُرب لِمعلومٍ أسلوبُ تَجاهُلٍ يَحطُّ مِن شأنِهِ

جرْيًا على طبيعة الطُّغاة يَبعث فرعونُ في ثنايا تهمته بالكذب لموسى ﷺ بإشارة تحقيرٍ، في محاولة للحطِّ من شأنه - ﷺ ويتجاهل اسمه، ويشير إليه بأداة القريب: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، دون أن يقول: (إن موسى لساحر)، ومن طبْعِ إشارة القريب ﴿هَٰذَا﴾ أن تتلوَّن مع المقامات، فهنا تُلمح إلى محاولة تحقير فرعون لموسى ﷺ، على حَذوِ الإشارة في قول المشركين: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١﴾ [الفرقان: 41].

نوعُ (اللام) ودلالتُها في ﴿لَسَٰحِرٌ﴾:

حين تلوحُ دلائلُ صدقِ المصلح يسارعِ المفسدُ إلى تكذيبها

(اللام) في قول جملة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ﴾ لامُ التوكيد، ولا مقتضى لها هنا إلّا محاولةُ فرعونَ إضفاءَ الصِّدقِ على تهمته الكاذبةِ، لا مقتضى لها إلّا هذا؛ لأنَّ ملأه لم يكذِّبوه، ولم يُبدوا تشكُّكًا في تهمتهِ، بل كانوا على طريقته مِن الاستبداد الأعمى والكذب البَواح، إلّا أن يكون فرعونُ قد رأى في أعينهم بعض أمارات تصديق موسى ﷺ،

وذلك غير مُستبعَدٍ، بدليل ذهوله عن تقاليد الفرعنةِ، فاستأمرَهم، وأمَروه بإرجاء موسى وأخيه ﷺ؛ فيكون التوكيدُ مسارعةً منه إلى انتزاع هذا الشعور منهم.

دلالةُ استعمالِ لفظ ﴿لَسَٰحِرٌ﴾:

السِّحرُ إذا كان أداةً لفرعونَ؛ فحقٌّ، وإن كان لغيرِه فباطل

في نزوع فرعونَ إلى تُهمة موسى ﷺ بالسِّحر في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ دلالةٌ على تَشبُّع فرعونَ بفكرة السِّحر، وأنَّهُ كان يُقيم ملكه على سحر الناس، ويتَّخذ من السِّحر وألاعيب السَّحَرَةِ وسائل غير أخلاقيَّة؛ لأنَّ أوَّل ما قفز إلى ذهنه الخبيث الرَّبْطُ بين معجزتَي موسى ﷺ والسِّحرِ، وكأنَّها كانت تهمةً جاهزة، يتَّخذها تهمةً لكلِّ من أراد التورك عليه بأدلَّةٍ قويَّةٍ، لا تَروقه، وعلى حَذوهِ اتَّهم كفّارُ قريش رسولَ الله ﷺ بالسّاحر والكاهن وغيرهما.

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الفاعل:

زعْمُهم رسوخَ قَدمِ موسى ﷺ في السِّحرِ

صيغ اسمُ الفاعل ﴿لَسَٰحِرٌ﴾ لتأكيد رسوخ قدمِ موسى ﷺ في صنعةِ السِّحر، وقيامه عليها وقِدَمه فيها، وأنَّها له دَيدنٌ لازِم.

نكتةُ الوصفِ ﴿عَلِيمٌ﴾ مادة وصيغة:

مِن ظُلمِ الطواغيت تهمةُ المصلحين بالفسادِ العريض

وصفُ لفظ ﴿لَسَٰحِرٌ﴾ بصفة ﴿عَلِيمٌ﴾؛ لبيان أنَّ فرعونَ أراد أن يقرِّرَ للملأ أنَّه ما أتى بهذه الخوارقِ إلّا وقد بلغَ في السِّحر ذلك المبلغ تعلُّمًا ومِراسًا وإتقانًا، وأنَّه بلغَ في صنعة السِّحر مبلغَ العالم، بل الـ ﴿عَلِيمٌ﴾، ولا يزال فرعون بسوء نيَّةٍ وخُبْث طويةٍ يَكيد لِموسى ﷺ فيُبالغ في وصفه برسوخِ قدمه ﷺ في العلم بالسِّحر، فيصوغُ وصْفهِ بِالعلم به في صيغة مبالغة ﴿عَلِيمٌ﴾؛ ليضمن لتُهمته التصديقَ عند الملأ، ويبدو أنَّ ذلك قد انطلى عليهم فعلًا، وصدَّقوه، فبحثوا، فأشاروا بمنح نفسِه متنفَّسًا من الوقت، ريثما يتدبَّر مخرجًا من هذا المأزق الشديد، فوجَّهوه إلى إرجاء موسى وأخيه ﷺ إلى حين.

عِلَّةُ فصل جملة ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم﴾ عمّا قبلها:

صنعةُ المستبدّين تمتينُ دعاويهم بأباطيل ضدَّ المصلحين

جملة ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم﴾ "إغراءٌ وتحريش منه لِقومه على موسى ﷺ؛ لِئلا ينظروا إليه بعين التعظيم؛ لِعَظيم ما أتاهم من الآية، وأراهم، حيث قال: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾، وموسى ﷺ كان لم يُرِد إخراجهم من أرضهم، ولكن ذلك إغراءٌ منه لهم عليه لئلّا يتَّبعوه"[1].

وقد فُصِلَ قولُهُ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ عن قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾؛ لِما بينهما من كمال الاتِّصال؛ إذ الثانيةُ بمنزلة بيانٍ للأولى، وأنَّ موسى ﷺ إنَّما اتَّخذ السِّحر - كما يزعم فرعون - وسيلةً لِغاية خبيثة، وأنَّه ﷺ يتذرَّع بالسحر لتحقيقها، وهي إخراجهم من أرضهم.

وكأنَّ فرعونَ لِفرط دهائِهِ لمح ما لم يَلْمحوه، وفَهِمَ ما لم يفهموه، وسبقهم بِثاقب وعيه إلى مأرب موسى ﷺ مِن سِحره - على حدِّ زعم الملعون - وهكذا هي حُججُ المستبدين لتأليب أعوانهم ودهمائهم، وتحريشهم ضدَّ الصالحين المصلحين في كل جيل وقبيل.

دلالةُ استعمالِ لفظ الإرادة:

يتظاهرُ الفراعينُ بنفاذ البصيرة إلى مآرب المصلحين

استعملَ النَّظمُ الكريم مفردةَ الإرادة ﴿يُرِيدُ﴾؛ لبيانِ أنَّ فرعون يتَّهم موسى ﷺ، بأنَّه يُرتِّب، ويدبِّر، ويتعمَّد، ويتَّخِذ لذلك التدابير، وتلك أقرب التُّهم التي يلجأ إليها الطُّغاةُ لتحريض العوام ضدَّ المصلحين، وهي تُهمة تخريب الحياة عليهم وتشريدهم.

فاصطفاء مفردة (الإرادة) مظهرٌ لصبِّ الحقد في قلوب الملأ على موسى ﷺ وهو الأدخل في التحريض ضدَّهُ؛ حتى ينطلق الملأُ بعزيمة يحدوها اعتقادُ السوءِ في أنَّ موسى ﷺ شِرّيرٌ خطير.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 56.

نكتةُ التَّعبيرِ بمضارع الإرادةِ:

صيغةُ المضارعةِ عنصرُ إلهابٍ للأحاسيسِ

إيثارُ صيغة المضارع ﴿يُرِيدُ﴾ لبيان أنَّ فرعونَ يُلمِّح إلى الملأِ بأنَّ تلك الإرادة لدى موسى ﷺ نشِطةٌ مُتجدِّدة، وأنَّ عزيمته ﷺ على إخراجِهم من أرضِهم متصاعدة لا تخبو، ولا تتراجع، ولا تَهاوُن منه في تنفيذها.

وهكذا تسهم صيغةُ المضارعةِ في تحريشِ الملأِ وإلهابِ أحاسيسهم واستفزازهم، كما تستفزُّهم مادَّتُها اللُّغويَّة نحو تأكيد معاداة موسى ﷺ والتربُّص لِهزيمته.

نوع ﴿أَن﴾ ومعناها:

﴿أَن﴾ في جملة المفعول ﴿أَن يُخْرِجَكُم﴾ مصدريَّةٌ، تمثِّلُ مع الفعل بعدها مصدرًا، والتَّقدير: (يريد إخراجكم)، والجملةُ المصدريَّةُ تتيح إشاراتٍ لا يوفِّرها المصدرُ المباشر.

سرُّ إيثارِ التَّعبير بالمفعول جملة مصدرية:

تحريضُ فرعونَ للملأِ بدورِهِ يُسهم في تحريض مع دونهم

جاء التَّعبيرُ بالجملة المصدريَّة دون المفردِ؛ لِما لا يوفِّرهُ المصدرُ الصَّريح من الدَّلالاتِ، مع التَّعبيرِ بالفعل المضارع بعد ﴿أَن﴾ في قوله: ﴿أَن يُخْرِجَكُم﴾، لبيان تجدُّدِ عزمِ موسى ﷺ على إخراجهم، ممّا يزيد المخاطَبين حنقًا وغيظًا، وزيادة المبنى في جملة ﴿أَن يُخْرِجَكُم﴾ على المصدر الصَّريح (إخراجكم) تزيدُ في المعنى، فتُسهِم في استفزازِ الملأِ، الذي سيَستفِزُّ بدوره مَن تحتَهُ من عوام الناس.

بلاغةُ المجاز في الإخراج:

المستبدّون يُخوِّفون الملأَ من ذَهاب وجههم ووجودهم

قوله: ﴿يُخْرِجَكُم﴾ مجازٌ، وذلك على تأويلِ معنى ﴿يُخْرِجَكُم﴾: بأنَّه "يُخرج خدمَكم وعبيدَكم - يعني بني إسرائيل - لأنَّه جاء يَطلبهم بقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف: 105]، أو: يوقع العداوةَ بينكم بِأنْ يستميلَ بعضكم، فيقع الخِصام والمحارَبة، فيصير سببًا لِخروجِكم مِن دياركم"[1].

(1) الكرماني، لباب التفاسير: 1/ 1825.

أو: "يريد موسى أن يستولي على قلوب الناس، ويميلها معه بسحره هذا حتى يَكثُرَ أعوانُه وأنصارُه، ويغلِبَكم على دولتكم، فيأخذَ البلاد منكم، ويستعبدَكم، فتذهبَ عزَّتُكم، ويزولَ سلطانُكم، وتكونوا أتباعًا وخَدَمًا بعد أن كنتم سادةً أعِزَّةً"(1).

نوعُ ﴿مِّنْ﴾ ودلالتها:

تـهـويـلُ شـأنِ المُصلحين يهيِّئ للاستـمـاتـةِ في ردِّهم

حرفُ ﴿مِّنْ﴾ في قوله: ﴿مِّنْ أَرْضِكُم﴾ ابتدائيَّةٌ، فهي تصوِّرُ للملأِ إخراجَ موسى لهم - بحسب زعمِ فرعونَ - وكأنَّه اقتلاعُ أصولٍ مِن مغارِسِها، فيزيد بذلك حقدَ القومِ على موسى ﷺ ويبعث فيهم الهمَّةَ على التأهُّب لِلاستماتة في مُحاربته في الجولة القادمة.

دلالةُ الإضافةِ إلى ضمير الملأِ وبلاغتها:

عـنـد ضـعـفِ الطاغيةِ تظهر معالمُ الحقائقِ الخاوية

ممّا يؤجِّج غضبَ الملأِ على موسى ﷺ، ويؤكِّد كرهه في قلوبهم إضافةُ لفظ (أرض) إلى ضميرِهم: ﴿مِّنْ أَرْضِكُم﴾؛ لأنَّ الأرضَ على أصحابها غاليةٌ عزيزة، بل دونها القتلُ وبَذْلُ الأرواح، و"هذه نهايةُ ما يفعله المبطل في التَّنفير عن المحق"(2)، فهكذا تكون المفردات كاشفةً عن مدى خوفه من موسى ﷺ ومدى تعويلِه على ملَئِه في استنقاذه ممّا ينتظرُهُ من المصير المظلم المجهول، ثُمَّ إنَّ فرعونَ "يستسلم للملَأ حوله، ويُسَلِّم بأنَّ الأرض أرضُهم، وقد كانوا منذ قليلٍ هم والأرض مِلكًا خالصًا ليدِهِ، وإذا كانت الأرضُ أرضَهم، وموسى ﷺ يريد أن يخرجَهم مِن أرضِهم هذه بسحرِهِ؛ فالأمرُ إذًا أمرُهم، فماذا يرون"(3).

فائدةُ إضافةِ لفظ السِّحر إلى الضَّمير:

تعريف السِّحر بخصوصيَّةٍ غير معهودة

في إضافة لفظِ السِّحر إلى ضمير موسى ﷺ ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾ مزيدُ ترهيبٍ للقوم منه ﷺ، ومزيدُ استفزازٍ لهم ضدَّهُ؛ لأنَّ التَّعريفَ

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 7/ 1568.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 501.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 10/ 84.

بالإضافة يوهم أنَّ لِموسى ﷺ سحرًا خاصًّا به، غير معهودٍ لأحد من السَّحرة، وأنَّه لا قبل لهم - إن لم يتكاتفوا على دحضِهِ - بصدِّه ودفعه.

براعةُ تقديمِ ﴿مِّنْ أَرْضِكُم﴾ على ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾:

تقديمُ الغايةِ على الوسيلة هو الأسلوبُ الأقوى في الإشعار بالخطر

من براعة النَّظمِ القرآني دِقَّةُ نقل دخيلة فرعون الخبيثة، الحريصة على إشعال النار في قلوب المخاطَبين، وإفعامهم لِموسى ﷺ كُرهًا وحِقدًا، فمن براعة القرآن في ذلك تقديمُ القيد ﴿مِّنْ أَرْضِكُم﴾ - المتعلِّق بالفعل ﴿يُخْرِجَكُم﴾؛ غايةً له - على القيد ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾ المتعلِّق بالفعل نفسِهِ وسيلةً له؛ إذ المهمُّ في هذا المقام والمؤثِّر الأهمُّ في إلهاب هؤلاء هو تهديدُهم بطردِهم من أرضهم لا وسيلة طردهم.

نوعُ (الفاء) في اسم الاستفهامِ ومعناها:

استشارةُ المستبدِّ أشبهُ بجبروت المتغطرس

(الفاء) في جملة الاستفهام ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ تفريعيَّةٌ، فبعدَ أن بيَّن غاية موسى ﷺ، وذكر وسيلتَهُ لتحقيق غايته؛ فرَّع على ذلك أخْذَ المشورة بصيغة الاستفهام، ففَهِمَ عليه الملأُ، فقالوا: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾، وهكذا المبطلون يساندُ بعضُهم بعضًا؛ بُغيةَ البقاء ما أمكنَهُم.

غرضُ الاستفهامِ ودلالته الكنائيَّة:

الإلـهُ الحـقُّ عـونُ العبادِ لا مُعانُهم

الاستفهامُ في جملة ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ يحتملُ الحقيقةَ من طلب الفَهم، ويحتمل الاستنصاحَ وأخذ المشورة، وإلى ذلك فهو كنايةٌ عن ضعف فرعون، وعدم استغنائِهِ عن مساعدة أتباعِهِ، ممّا تترتَّب عليه حقيقةُ كذبِهِ في دعواه الألوهيَّة؛ إذ يقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: 38] وكذبِهِ في دعوةِ الربوبيَّة حيث يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: 24]؛ إذ الإلهُ الحقُّ والربُّ الصِّدّق مستغنٍ عمّا سواه.

عند ما تضيقُ الحُججُ بالمفترين يـتـذلَّـلـون صاغرين

بلاغةُ استعمال مفردةِ ﴿تَأْمُرُونَ﴾:

في استعمال مفردة ﴿تَأْمُرُونَ﴾ دلالةٌ على ضعف فرعونَ أن يكونَ إلهًا أو ربًّا كما يزعمُ، فها هو ينتظرُ من أتباعهِ الأمر ﴿تَأْمُرُونَ﴾، وكأنَّهم صاروا سادتَهُ، وهو عبدُهم المستأمِرُ، ولا أشنع من ذلك في حقِّ ذلك المدَّعي.

و"هذا يبيِّن أنَّه كان قد عرَفَ أنَّه ليس بإلهٍ، فبيَّن دناءَتَهُ وقلَّة معرفته؛ لأنَّه لا يقولُ مَلِكٌ من الملوك لقومه: ماذا تأمرون، وخاصَّة من يدَّعي لنفسه الألوهيَّة بقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: 38]؛ فدلَّ أنَّه كان خسيسَ الهمَّة في الرأي والبال"[1].

قال الزمخشريُّ: "ولقد تحيَّرَ فرعونُ؛ لمّا أبصرَ الآيتين، وبقي لا يدري: أيُّ طرَفَيهِ أطولُ؟ حتى زلَّ عنه ذِكرُ دعوى الإلهية، وحطَّ عن مِنكبيه كبرياء الربوبية، وارتعدت فرائصُهُ، وانتفخ سَحَره[2] خوفًا وفَرَقًا، وبلغت به الاستكانة لِقومه - الذين هم بزعمه عبيدُه، وهو إلههم - أن طفق يؤامرهم، ويعترفُ لهم بما حذَّر منه، وتوقَّعه، وأحسَّ به من جهة موسى عليه السلام وغلبته على مُلكه وأرضه ... جعل العبيدَ آمرين وربَّهم مأمورًا؛ لِما استولَى عليه مِن فَرْطِ الدَّهش والحيرة"[3].

و"مثل هذا الكلام يوجب جَذْب القلوب، وانصرافَها عن العدو"[4]، ثم إنَّه قد "أظهر لهم الميلَ إلى ما يقولونه تألُّفًا لهم، واستجلابًا لِمَوَدَّتِهم؛ لأنَّه قد أشرفَ ما كان فيه من دعوى الربوبيَّة على الزَّوال، وقارب ما كان يُغَرِّر بهِ عليهم الاضمحلالَ، وإلّا فهو أكبرُ تيهًا وأعظم كِبرًا من أن يخاطبَهم مثلَ هذه المخاطَبةِ المشعرة

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 57.
(2) السَّحر: الرئة، ويقال للجبان: قد انتفخ سحرُهُ.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 310.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 501.

بأنَّه فردٌ من أفرادهم وواحدٌ منهم، مع كونِهِ قبلَ هذا الوقت يدِّعي أنَّهُ إلهُهم، ويذعنون له بذلك، ويصدِّقونه في دعواه"[1].

"وهكذا الطُّغاة عند ما يضيق الخناق حول رقابهم يتذلَّلون، ويتباكَون، فإذا ما انفكَّ الخناقُ مِن حول رقابهم؛ عادوا إلى طُغْيانهم وفجورهم"[2].

نكتةُ حذفِ مفعولِ الأمر:

الفعل ﴿تَأْمُرُونَ﴾ لم يتعدَّ لمفعولٍ، فإمّا أن يكونَ مفعولُهُ محذوفًا، وإمّا أن يكون عومِلَ معاملةَ الفعل اللازم، وإذا حُمل على معنى المشاورة – أي: فماذا تُشيرون؟ – فبيِّنٌ واضح معاملة الفعل معاملة اللازم، ويكون قد أطلق طلب المشاورة، أي: أشيروا بأيِّ شيءٍ يُعين على الخلاصِ من هذا الازدحام المحرج المقلق.

أيُّ رأيٍ يُعين على الخلاص من الحرج؛ فهو المنقذُ من الضَّياع

علَّةُ فصل الجملة عمّا سبقها:

فُصِلت جملة ردِّ الملأِ على فرعون ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ للاستئناف البياني؛ إذ لا زال المتلقي متحفِّزًا لمعرفة جوابهم، ومُتابعة هذا السياق المتوتِّر، متطلِّعًا إلى الوقوف على مَرمى تلك الأحداث المتلاحقة.

من شأن القصص الحقِّ جذْبُ انتباه المتلقي حتى نهايته

بلاغةُ اجتماع الحقيقة والمجاز باعتبارين:

أُسْنِد القول في جملة: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ إلى جميع الحاضرين من ملأِ فرعون، بينما قاله بعضهم، وفي حقيقة الأمر هو صادر عن الجميع بالقوَّة؛ لأنَّهم رضوا بهذا الرأي، ولعلَّه صدر عنهم بعد تشاورٍ وتدارس، وعن البعض بالفعل؛ لأنَّ القول يصدر عن شخص باسم الجميع، وفي ذلك إيحاءٌ بإجماعِهم على هذه الفكرةِ، وأنَّ فرعون قد انكسر أمامهم جميعًا، وصار كلٌّ منهم كالسَّيِّد أو المستشار المسموع في هذا المقام الحرِج.

الآراءُ التي تأتي عن اجتماعٍ تُنقذ الأقوال الَّتي تصدر عن انفراد

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 115.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 244.

نكتةُ إيثارِ مفردةِ الإرجاء:

الإرجـــاءُ تأخير بقصد تحقيق غاية من ورائه

معنى ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾: احبسهما، وأخِّرهما، وجاء التَّعبيرُ بمفردة ﴿أَرْجِهْ﴾ دون التأخير، وذلك لأنَّ معنى التَّأخير غير وارد هنا؛ إذ التَّأخير يوحي بالتعطيل، بخلاف الإرجاء الذي يوحي بمعنى التأجيل فقط، ولا مجال هنا للتعطيل بقصد الهرب؛ لأنَّهم يقصدون إلى عقد المنافسة وإجرائها إجراء واقعيًّا حقيقيًّا، ولم يأمر الملأ بقتل موسى وهارون ﷺ مخافةَ افتتان النّاس بهما؛ "لأنَّ حُجَّتَهُ نيِّرة، وضلالَتَهم في ربوبيةِ فرعون مُبينة؛ فخشوا الفتنة، وطمعوا أن يَغلب بِحُجَّةٍ تُقنع العوامَّ"[1].

غرضُ الأمرِ في الإرجاء والبعث ودلالتُه:

لا يتجاوز أمرُ الملأ أن يكون إشارةً أو مشورة

الأمرُ في قول الملأِ لِموسى ﴿أَرْجِهْ﴾، ﴿وَٱبْعَثْ﴾ خارجٌ عن أصل معناه من الاستعلاء والقهر إلى النُّصح والإرشاد؛ لأنَّ فرعونَ زعيمُهم، وذلك لا يمنع من شعورهم بِنَشْوة النِّدِّيَّة، وقد استأمرهم بنفسه: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟ ولعلهم قالوا ذلك لِفرط الدَّهشة، أو تَجلُّدًا ومداهنةً لفرعون، وإلّا فكيف يُمكن لفرعون أن يحبِس موسى ﷺ مع ما شاهد منه مِنَ الآيات؟[2]

دلالةُ ذِكر ﴿وَأَخَاهُ﴾:

مقتضى الحكمة إرجـــاء الاثنين وعـــدم إطـلاق أحدهما

من الملحوظ في السياق السّابق أنَّه لَمْ يَرِدْ لِهارون ﷺ ذِكرٌ، وأنَّ أوَّل إشارةٍ له هنا جاءت في نصيحة الملأِ فرعونَ: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾، وجاء ذكره في هذا الموضع باعتبار أنَّ الإرجاءَ يجب أن يكون للاثنين، فإرجاءُ أحدهما وإطلاق الآخر يخلو من الحكمة من وراء الإرجاء.

معنى واو البعث ودلالتها:

(الواو) في جملة ﴿وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ واو العطف،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 230.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 76.

لإضافة الملأ نصحًا إضافيًّا إلى النُّصح الأول ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ والربط بينهما، لا الإرجاء فقط، فلا ضرورة لإرجاء لا يعاضده بَعثٌ في المدائن لِحَشْد نجوم السحر، بل إنَّ الإرجاء بِدون حشدٍ يكون خطره أشدَّ؛ إذ يتجهَّز موسى ﷺ فيقوَى ويضعفون، فالمطلوب الجمعُ بين الإرجاء والبعث معًا بدون فاصلٍ زمني.

تجهيزاتُ الطُّغاة لِمُلاقاة المصلحين تَتَلاحَقُ كأنْ لا وقتَ بينها

نكتةُ استعمالِ مفردة البعثِ:

جاء التَّعبيرُ بِفعل الإرسال ﴿وَأَرْسِلْ﴾ [الأعراف: 111] في سورة الأعراف، والتعبير بفعل البعث ﴿وَٱبْعَثْ﴾ في هذه السورة؛ وذلك للجمع بين أمرين، وهما الإشعار بالعلوِّ في فعل الإرسال، والإشعار بسرعة الانتشار وكثافته في فعل البعث، وأتى بكلٍّ لفظ بما يلائم السياق الوارد فيه.

الإيماءُ إلى معنى الانتشارِ وكثافته وسرعة الإبلاغ

دلالةُ التَّعدية بحرف الظرفية:

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ حرف الظرفية ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ٱلْمَدَآئِنِ﴾ دون حرف الغاية (إلى)، فلم يقل: (وابعثْ إلى المدائنِ حاشرين)؛ "لأنَّ الفعل هنا غيرُ مقصودٍ تعديتُهُ إلى المرسَل إليهم، بل المقصود منه المرسَلون خاصَّة، وهو المفعول الأوَّل؛ إذ المعنى: وأرسل حاشرين في المدائن يأتوك بالسَّحرة، فعَلِمَ أنَّهم مرسَلون للبحث والجلب، لا للإبلاغ"[1]، ولبيان حرصهم على التنقيب في المدائن عن المَهَرَة مِن السَّحرة؛ لِملاقاة موسى وأخيه ﷺ.

أهلُ الباطل حريصون على التنقيب عن أسباب إنجاحِ باطلهم

نكتةُ استعمالِ لفظ المدائن:

المدائن: جمع مدينة، وهي بوزنِ فَعيلة، مشتقَّة من مَدَنَ بالمكان؛ إذا أقام، ولعل (مدن) هو المشتقُّ من المدينة لا العكس؛ بناء على أنَّ أصل المشتقّات هو المصدر[2]، ومدائنُ مصرَ في ذلك الزمن

المدائنُ مواطنُ التنوُّع الاجتماعي والثقافي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 43.

(2) وهو رأي البصريين الذين يقولون: إنَّ المصدر هو أصل الاشتقاق، لأنَّه يدلُّ على شيء واحد، وهو الحَدَث، مثل كلمة: الكتابة، نشتقُّ منها: كتب، يكتب، اكتب، مكتوب، كتاب، والمصدر اسم، أمّا الفعلُ، فإنَّهُ يدلُّ على حدث وزمن، والذي يدلُّ على شيء واحد، يعد هو الأصل في كل شيء.

كثيرةٌ[1]، وفي التعبير بـ ﴿ٱلۡمَدَآئِنِ﴾ توجيهٌ ولَفْتٌ إلى حواضِر مصرَ ومُدُنِها الكبيرة، التي تضجُّ بالعُمران، ويتزاحم فيها الناس، وتتنوَّع فيها الثقافات، وتَضُمُّ صفوةَ السَّحَرَة، فتلك حواضن الخبراء في كافَّة التخصُّصات بِخلاف القُرى، التي تكاد يُجمع أهلوها على حِرفةٍ واحدة أو دين واحد.

دلالةُ جمع ﴿ٱلۡمَدَآئِنِ﴾ وتعريفها:

دلَّ جمْعُ ﴿ٱلۡمَدَآئِنِ﴾ وتعريفُها على تغطية كل مُدن مصر بالبحث والتَّنقيب؛ لاستقطاب خبراء السَّحَرَةِ، بحيث يضمنون الغلبة، ويظفرون بالنَّصر.

بلاغةُ استعمالِ لفظ ﴿حَٰشِرِينَ﴾:

الاستبدادُ قرينُ القهر والإلزام

آثر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ لفظ ﴿حَٰشِرِينَ﴾ وهو جمع حاشر، وهو مَن يجمع السحرة من المدائن[2]، أي: "شُرطًا يَحشرون السَّحرة"[3]، ويجمعونهم؛ لما توحي به هذه اللَّفظة من الجمع المنتظم الذي لا يخالف فيه أحدٌ أمرَ الحاشرين، ففيها معنى القهر والإلزام.

نكتةُ التَّعبيرِ باسم الفاعل:

عند احتدامِ الأمور تقوى العزائم

التَّعبيرُ بصيغة اسم الفاعل ﴿حَٰشِرِينَ﴾ يَشي بوفرة العزيمةِ القويَّة على تنفيذ الحشر، والتصميم الموفور والهمَّة الثابتة الجادَّة على إنجاح المهمَّة، أمّا الفعل (يحشرون)؛ ففيه دلالةٌ على التجدُّد، الذي لا يُناسب المقام المحكوم بوقتٍ لا سَعَةَ فيه لرفاهية التجدُّد والتبدُّل.

دلالةُ الجمع في ﴿حَٰشِرِينَ﴾:

جمعُ ﴿حَٰشِرِينَ﴾ للدَّلالة على وفرة عَددهم، ومؤازرة بعضهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 44.
(2) الكرماني، لباب التفاسير: 1/ 1827.
(3) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 2/ 561.

بعضًا؛ بحيث تتحقَّق الغايةُ على الوجه الأكمل، وبهذا يتجلَّى إخلاصُ الملأ لِفرعون، ويتأكَّد الولاء.

موقعُ جملةِ ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾:

تمامُ النَّصيحة شَفْعُها بغايتها

جملة ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ جوابُ الأمر في جملة ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾؛ "للدَّلالة على شدَّة اتِّصال السببيَّة بين الإرسال والإتيان، فالتَّقدير: (إن ترسل، يأتوك)، وقد قيل في مثله: إنَّه مجزومٌ بلام الأمر المحذوفة، على أنَّ الجملة بدلٌ من أرسل بدلَ اشتمالٍ، أي: أرسِلْهم آمرًا لهم؛ فليأتوك بكلِّ ساحر عليم"[1]، فهي موضِّحةٌ ومبيِّنة لجملة الأمر ببعث الحاشرين؛ ففرضُ البعث في المدائن حاشرين أنْ يأتوه بكل سحّار عليم، وأن تكون مُهمَّتُهم فرْزَ السَّحرة وانتقاءَ خُبرائهم؛ بدلالة صيغة ﴿سَحَّارٍ﴾ ووصفه بـ ﴿عَلِيمٍ﴾.

غرضُ تقييدِ الفعل بالمفعول:

أكملُ نفاقِ الأَتْباع قصرُهم خوفَهم على مصلحة متبوعهم

من لطائف التَّركيب في قول الملأِ لفرعون: ﴿يَأۡتُوكَ﴾ تخصيصُ الفعل (يأتوا) بمفعول مخصوصٍ هو كافُ الخطاب المعنيُّ بها فرعون؛ ذلك أنَّ الحاشية التي تشير بهذا الرَّأي يُبالغون في إظهار حرصِهم على نصرة كبيرهم، وأنَّهم إنَّما يجتهدون في تمحيص الرأي والمشورة لأجله هو لا لأجلهم هم، وفي ذلك امتنانٌ كبير عليه، وإلّا لاكتفَوا بفعل علَّةِ بعْثِ الحاشرين مطلقًا بدون مفعولٍ، فقيل: (يأتوا بكلِّ سحّار عليم).

نوعُ الباءِ ودلالتها:

الباءُ في القيد ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ باء المصاحبة، أي: ابعث في المدائن حاشرين يصطحبوا إليك مَهَرَةَ السِّحرة وحُذّاقهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 44.

دلالةُ استعمال لفظ العموم:

نصائحُ الأتباعِ ضررُها أكبرُ من نفعها لسوء منبتها

دلَّ استعمالُ لفظ العموم (كل) في قوله: ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ على الحثِّ على جلْب جميع مَن يمتلك المَهارة في السِّحر، فـ(كل) "مستعملٌ في معنى الكثرة، أي: بجمْعٍ عظيمٍ من السَّحَرَة يشبه أن يكون جميعَ ذلك النوع"[1]، وبهذا "جاؤوا بكلمة الإحاطة وبصيغة المبالغة؛ ليُطيِّبوا قلبَهُ، وليُسَكِّنوا بعضَ قلقِهِ"[2]، وإنجاح مهمَّة التصدّي لموسى وأخيه عليهما السلام.

وهذا نُصحٌ أضرَّ بفرعون من حيثُ ظنوه نافعَهُ؛ إذ كانت الإحاطة بأصحاب المهارة جميعًا حاسمةً في انهيار منظومة السِّحر التي يحكم بها البلاد، ويسوس بها العباد دُفعَةً واحدة، وقد عَموا عن النُّصح الرشيد؛ لأنَّه نُصحٌ مبنيٌّ على النِّفاق.

سببُ استنجادِ الملأِ بالسَّحرة:

الشَّأنُ أنْ يكون ملأُ الحكّام عقلاءَ وأهلَ سياسةٍ

"كان السَّحَرَةُ في القديم هُم الطبقة المثقَّفة، ولهم مكانتهم عند الملوك والجبابرة"[3]؛ وبناء عليه تنشأ لهم المكانةُ في نفوس الناس؛ لذلك وجَّه الملأُ بالاستعانة بالسَّحرةِ دون سواهم، "والشَّأن أن يكون ملأُ فرعونَ عقلاءَ وأهلَ سياسةٍ، فعلموا أنَّ أمر دعوة موسى عليه السلام لا يكاد يخفى، وأنَّ فرعونَ إنْ سجنه، أو عاند؛ تحقَّق الناس أن حُجَّة موسى عليه السلام غلبَتْ؛ فصار ذلك ذريعةً للشكِّ في دين فرعون، فرَأَوا أنْ يُلاينوا موسى عليه السلام وطمِعوا أنْ يوجَدَ في سَحَرَةِ مصرَ مَن يُدافع آياتِ موسى، فتكون الحُجَّة عليه ظاهرةً للناس"[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغة المبالغة في السِّحر:

كشْفُ الحالةِ النَّفسيَّة للملأِ وفرعون

صيغةُ المبالغة في ﴿سَحَّارٍ﴾ تفيد أنَّ كلَّ واحدٍ منهم "كثيرُ العمل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 45.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 502.
(3) حجازي، التفسير الواضح: 2/ 752.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 44.

بالسِّحر، عليمٌ فائقٌ في عِلمه، ولِكَوْنِ المهمِّ هنا هو العمل؛ أتَوا بما يدلُّ على التَّفضيل فيه"[1]، فَهُم قد "عارَضوا قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ﴾، بقولهم: ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾، فجاؤوا بكلمة الإحاطةِ وصفة المبالغة؛ ليُطامِنوا من نفسه، ويُسَكِّنوا بعض قلقِه"[2]، وفي التَّعبير بصيغة المبالغة (فَعّال) في ﴿سَحَّارٍ﴾ تأكيدُ انتقاءِ ذَوي المهارة العالية والخبرة الكبيرة والمراس الطَّويل؛ ظنًّا منهم بأنَّ ذلك هو الضامن الأكيد لِهزيمة موسى وأخيه - عليهما السلام - وذلك كنايةٌ عن تأثير معجزتَي موسى عليه السلام في الملأ، فقد رأوا ما لم يرَوا مثله مِن قبل، ومثل هذا لا يُجدي في دحضه - فيما يظنّون - إلّا مهَرَةُ السَّحَرَةِ وصفوة خبرائهم.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظي:

انتقاءُ الصّيغِ يفي بمقتضيات السياقات والأحوال

"اتَّفق القُرّاءُ العشرة على قراءته ﴿سَحَّارٍ﴾ على وزن (فعّال) للمبالغة؛ لأنَّه جوابٌ لِقول فرعونَ فيما استشارهم فيه مِن أمْر موسى عليه السلام بعد قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، فأجابوه بما هو أبلغُ من قوله رعايةً لِمُراده، بِخلاف الذي في الأعراف، فإنَّ ذلك جوابٌ لقولهم، فتناسب اللَّفظان، وأمّا الذي في يونس؛ فهو أيضًا جوابٌ مِن فرعون لهم، حيث قالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يونس: 76]"[3].

نكتةُ الوصف بلفظ ﴿عَلِيمٍ﴾:

على قَدْرِ قوَّةِ حُجَج الصالحين يَحشد المبطلون أدواتهم

اشترطَ الملأُ في أولئك السَّحرة الذين يُجْلَبون لِمواجهة موسى وأخيه - عليهما السلام - الاتِّصافَ بِالعلم في قوله: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾، والعليمُ: الفائقُ في معرفة السِّحْر وصنعته[4]، وذلك أنَّ فرعون خوَّفهم بِأنَّ موسى (ساحر عليم)، ولا يَفُلُّ الحديدَ إلّا الحديدُ؛ فلا يَلقَى العليمَ بالسِّحر إلّا العليمُ به.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 76.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 311.
(3) محيسن، الهادي شرح طيبة النشر: 2/ 243.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 115.

وكأنَّهم يقولون: إنَّ حشْدَ عُموم السَّحرة لا يُغني عن فرعونَ شيئًا، وإنَّما الذي يُجدي عليه نفعًا، ويضمن له النَّصر هو حشدُ الخبراء المتمرِّسين مِن السَّحرة؛ لما رأوا في معجزتَي موسى ﷺ مِن الخِبرة الكبيرة في السِّحْر.

دلالةُ صياغة ﴿عَلِيمٍ﴾ في السَّحرة:

يتلقَّفُ الأتباعُ كلماتِ متبوعيهم

كما حذَّر فرعون ملأه، وخوَّفهم من موسى ﷺ بوصف ﴿عَلِيمٌ﴾ بصيغة المبالغة (فعيل) في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، كذلك وجَّه ملَؤُه باجتذاب خبراء السَّحرة الذين يتَّصف كلٌّ منهم أيضًا بصفة ﴿عَلِيمٍ﴾، فقالوا: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾.

دلالةُ حذفِ متعلَّق ﴿عَلِيمٍ﴾:

لم يذكرِ النَّظْمُ الكريم متعلَّق ﴿عَلِيمٍ﴾، فلم يذكر معلومًا معيَّنًا، وذلك "لأنَّه صار بمنزلة أفعال السَّجايا، والمقام يدلُّ على أنَّ المراد قوَّةُ علم السِّحر له"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القوم والملأ:

القومُ جماعةُ الناس عامة، والملأ خواصُّ المُلوك ونحوهم

تُستعمل كلمةُ (قوم) في الأصل لجماعةِ الناس عامَّةً وعشيرة الرجل، كأنَّها اسمُ جمع "قائم"، وهم مظاهِرون (مُقَوّون) لمن هو منهم، ثم خُصِّصت بعدُ بالرجال، باعتبار أنَّهم كانوا هم الذين يُعْتَدُّ بهم في الحروب وما إليها، ولأنَّهم القادة والذادةُ، أي: القائمون بالأمر: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات: 11]، ويُلتفت إلى أنَّ موسى ﷺ قال: ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ [الصف: 5]، في حين أنَّ عيسى ﷺ قال: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الصف: 6]، ولم يقل: يا قومي؛ إذ لم يكن له أبٌ منهم[2].

(1) الراغب، مفردات غريب القرآن، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (قوم).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 45.

بينما تُستعمل كلمة (الملأ) للتَّعبير عن خواصِّ المُلوك والأمراء.

الحشر والجمع:

الحشرُ جمعٌ مع سَوْق، والجمع مطلق

"الحشر: هو الجمع مع السَّوْق، والشاهد قوله تعالى: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾، أي: ابعث مَن يجمع السَّحَرةَ، ويَسوقهم إليك، ومنه يوم الحشر؛ لأنَّ الخلقَ يُجمعون فيه، ويُساقون إلى الموقف"[1].

والجمعُ أعمُّ منه؛ لأنَّه يطلقُ على مطلق الاجتماع.

المدائن والقرى:

مجتمعُ المدينةِ متنوِّعٌ، ومجتمع القرية متوافق

يُطلِق القرآنُ الكريم اسمَ (القرية) على كلِّ مجتمعٍ متَّفق في عاداته، أو أخلاقه، أو عقيدته، أو حرفته، أمّا إذا اختلفتْ طبائعُ المجتمعِ في شيء من ذلك؛ أطلق عليها القرآنُ الكريم وصف (المدينة)، كما أطلق على يثربَ اسمَ (المدينة)؛ وذلك لاختلاف طبائعِ أهلها بعد الهجرة وافتراقهم إلى منافقين وصحابة مخلصين، فقال تعالى: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [التوبة: 101].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 188.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والثلاثون،
سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 38 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-80-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 38 : المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-80-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5248773 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»